يزداد ساعة يجدك تتحمل المشقة فيحن عليك ويعطيك جزءا أكبر . فالله يريد من عبده أن يستنفد أسباب قوته الخاصة ، وحين تستنفد الأسباب برجولة وثبات ، تأتيك معونة الله ، ويقول الله لملائكته : هذا يستحق أن يعان فأعينوه . ولذلك جاء قوله الحق على ألسنة المؤمنين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾

هذه هي الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه فهو ينادي قائلا : « ربنا » إنه لم يقل : يا الله ، بل يقول : « ربنا » ؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء ، بينما مطلوب « الله » هو العبودية والتكاليف ؛ لذلك ينادي المؤمن ربه في الموقف الصعب « ياربنا » أي يا من خلقتنا وتتولانا وتمدنا بالأسباب ، قال المؤمنون مع طالوت : « ربنا أفرغ علينا صبرا » .

وعندما نتأمل كلمة « أفرغ علينا صبرا » تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام « وثبت أقدامنا » حتى يواجهوا العدو بإيمان ، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين ، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني والقتال في قوله الحق :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ

ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

إن الحق يبلغنا أنه قد نصر المؤمنين به . ويجيء الحق بكلمة « هزموهم » وهي تدل على فرار من كان يجب أن يكون مهاجما . والمحارب يجب أن يكون مهاجما كارا دائما ، فحين يلجأ إلى أن يفر ، هنا نتوقف لنتبين أمره ، هل هذا الفرار تحرفا لقتال وانعطافا وميلا إلى موقف أخر هو أصلح للقتال فيه ؟ لو كان الأمر كذلك فلا تكون الهزيمة ، لكن إذا كان الفِرار لغير كَرٍ ومخادعة للعدو بل كان للخوف هنا تكون الهزيمة .

وقول الله : « فهزموهم بإذن الله » يدل على أن جنود جالوت لم يُقتلوا كلهم ، ولكن الذين قُتلوا هم أئمة الكفر فيهم ، بدليل قوله بعد ذلك : « وقتل داود جالوت » . وجالوت هو زعيم جيش الكفار الذى هرب ، فطارده داود وقتله . ولأول مرة يظهر لنا اسم « داود » فى هذه القصة الطويلة ، وهو اسم لم يكن عندنا فكرة عنه من قبل ، وستأتى الفكرة عنه بعد هذه القصة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فبداية داود جاءت من هذه المعركة بعد قتل جالوت ، وكان « داود » أخاً لعشرة وهو أصغرهم ، وقال النبى للقوم : إن من يدخل المعركة ضد جالوت لا بد أن يأتى درع موسى على مقاسه ، وهنا استعرض والد « داود » الدرع على جميع أبنائه ، فلم يأت على مقاس أى واحد منهم إلا على أصغرهم ، وهو « داود » . جاء الدرع على مقاسه ، ودخل « داود » المعركة فقتل جالوت قائد المشركين ، وشاعت

حكمة الله أن يكون أصغر المؤمنين هو الذى يقتل كبير جيش المشركين .

كانت هذه المعركة بداية تاريخ داود ، وقد جاءت له هذه المعركة بالفتح العظيم ، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة وجعل الجبال والطير تردد وترجع معه تسبيح الله وتنزيهه ، كل ذلك نتيجة قتل جالوت . وأحب داود الدرع وصار أمله أن يعلمه الله صناعة الدروع ، ولذلك لم يتخذ صنعة فى حياته إلا عمل الدروع . وجعل الله له الحديد ليناً ليصنع منه ما يشاء كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

وهذا دليل على أن الإنسان يحب الشيء الذى له صلة برفعة شأنه . ولقد كان قتل جالوت هو البداية لداود . « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » إن الحق يأتى هنا بقضية كونية فى الوجود ، وهى أن الحرب ضرورة اجتماعية ، وأن الحق يدفع الناس بالناس . وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم ؛ فلو سيطرت قوة واحدة فى الكون لفسد .

فالذى يعمر الكون هو أن توجد فيه قوى متكافئة ؛ قوة تقابلها قوة أخرى . ولذلك نجد العالم دائماً محروساً بالقوتين العظميين ، ولو كانت قوة واحدة لعم الضلال . ولو تأملنا التاريخ منذ القدم لوجدنا هذه الثنائية فى القوى تحفظ الاستقرار فى العالم .

فى بداية الإسلام كانت الدولتان العظميان هما الفرس فى الشرق ، والروم فى الغرب . والآن سقطت قوة روسيا من كفة ميزان العالم ، وتتسابق ألمانيا واليابان ليوازنا قوة أمريكا .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إن قول الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » جاء تعقيبا على قصة الصراع بين بنى إسرائيل وبين أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وعندما نتأمل هذه القصة من بدايتها نجد أنهم طلبوا أولا من الله الإذن بالقتال . وبعث الله لهم ملكا ليقاتلوا تحت رايته ؛ وكانت علامة هذا الملك فى الصدق أن يأتى الله بالتابوت . ثم جاءت قضية اجتماعية ينتهى إليها الناس عادة بحكيم الرأى ولو بدون الوحى ، وهى أن الإنسان إذا ما أقبل على أمر يجب أن يعد له إعداداً بالأسباب البشرية ، حتى إذا ما استوفى إعداده كل الأسباب لجأ إلى معونة الله ، لأن الأسباب ـ كما قلنا ـ هى من يد الله ، فلا ترد أنت يد الله بأسبابها ، لتطلب معونة الله بذاته ، بل خذ الأسباب أولا لأنها من يد ربك .

ويعلمنا الحق أيضا أن من الأسباب تمحيص الذين يدافعون عن الحق تمحيصا يبين لنا قوة ثباتهم فى الاختبار الإيمانى ؛ لأن الإنسان قد يقول قولا بلسانه ؛ ولكنه حين يتعرض للفعل تحدثه نفسه بألا يوفى ، وقد نجح قلة من القوم فى الابتلاءات المتعددة . وفعلا دارت المعركة ؛ وهزم هؤلاء المؤمنون أعداءهم ، وانتصر داود بقتل جالوت .

إذن فتلك قضية دفع الله فيها أناسا بأناس ، ويطلقها الحق سبحانه قضية عامة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » أى لولا أن الله دفع بالقلة المؤمنة الكثرة من عدوهم لفسدت الأرض ، فالدفع هو الرد عن المراد ، فإذا كان المراد للناس أن يوجد شر ، فإن الله يدفعه . إذن فالله يدفع ولكن بأيدى خلقه ، كما قال سبحانه :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إنه دفع الله المؤمنين ليقاتلوا الكافرين ، ويعذب الحق الكافرين بأيدى المؤمنين . وعندما نتأمل القول الحكيم : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»

فإننا نجد مقدمة سابقة تمهد لهذا القول ، لقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، فكان هذا هو مبرر القتال . وتجد آية أخرى أيضا تقول :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

والسياق مختلف فى الآيتين ، السياق الذى يأتى فى سورة البقرة عن أناس يحاربون بالفعل ، والسياق الذى يأتى فى سورة الحج عن أناس مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم المستضعفون من مكة لينضموا إلى إخوتهم المؤمنين فى دار الإيمان ليعيدوا الكرة ، ويدخلوا مكة فاتحين .

صحيح أننا نجد وحدة جامعة بين الآيتين . وهو الخروج من الديار . إذن فمرة يكون الدفاع بأن تفرَّ لتِكرّ . . أى أن تخرج من ديار الكفر مهاجرا لتجمع أمر نفسك أنت ومن معك وتعود إلى بلدك مقاتلا فاتحا ، ومرة يكون الدفاع بأن تقاتل بالفعل ، فالآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها هنا تفيد أنهم قاتلوا بالفعل ، والآية الثانية تفيد أنهم خرجوا من مكة ليرجعوا إليها فاتحين ، فالخروج نفسه نوع من الدفع ، لماذا ؟ لأن المسلمين الأوائل لو مكثوا فى مكة فربما أفناهم خصومهم فلا يبقى للإسلام خميرة ، فذهبوا إلى المدينة وكوّنوا الدولة الإسلامية ثم عادوا منتصرين فاتحين :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النصر)

إن السياق فى الآيتين واحد ولكن النتيجة تختلف ، هنا يقول الحق : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » لماذا تفسد الأرض ؟ لأن معنى دفاع الناس بعضهم ببعض أن هناك أناسًا ألفوا الفساد ، ويقابلهم أناس خرجوا على مَن ألِفَ الفساد ليردوهم إلى الصلاح . ويعطينا الحق سبحانه وتعالى فى الآية الثانية السبب فيقول :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

والصوامع هى ما يقابل الآن الدير للنصارى وكانوا يتعبدون لله فيها ، لأن فيه متعبدًا عَمِلَ بالتكليف العام ؛ ومتعبدًا آخر قد ألزم نفسه بشىء فوق ما كلفه الله به . فالذين يعبدون الله بهذه الطريقة يجلسون فى أماكن بعيدة عن الناس يسمونها الصوامع ، وهى تشبه الدير الآن . والمعنى العام فى التعبد للنصارى هو التعبد فى الكنائس وهو المقصود بالبِيَع ، والمعنى الخاص هو التعبد فى الصوامع .

إذن « لهدمت صوامع » هذه لخاصة المتدينين ، وكنائس أو بيع لعامة المتدينين . وقول الحق : « وصلوات » ، من صالوت ، وهى مكان العبادة لليهود ، و« مساجد » وهى مساجد المسلمين .

إن قوله تعالى : «لفسدت الأرض » فى هذه الآية ، وقوله تعالى هناك « لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد » أى أنه ستفسد الأرض إذا لم تقم الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ؛ لأنها هى التى تربط المخلوق بالخالق . ومادامت تلك الأماكن هى التى تربط المخلوق بالخالق فإن هدمت . . يكون الناس على غير ذكر لربهم وتفتنهم أسباب الدنيا .

فالأديرة والكنائس والصوامع ـ حين كانت ـ والمساجد الآن هى حارسة القيم فى الوجود ، لأنها تذكرك دائمًا بالعبودية وتمنع عنك الغرور ، وهى من السجود الذى هو منتهى الخضوع للرب ، نخضع بها لله خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ فإن كان عند العبد شىء من الغرور لا بد أن يذوب ، ويعرف العبد أن الكون كله فضل من الله على العباد ؛ فلا يدخلك أيها المسلم شىء من الغرور . فإذا لم يدخلك شىء من الغرور أستعملت أسباب الله فى مطلوبات الله . أما أن تأخذ أنت أسباب الله فى غير مطلوبات الله فهذه قحة منك . فإذا كان الله قد أقدر يدك على الحركة فلماذا تعصى الله بها وتضرب بها الناس ؟ والله أقدر لسانك على الكلام ، فلماذا تؤذى غيرك

بالكلمة ؟ إن الله قد أعطاك النعمة فلا تستعملها فى المعصية .

قال الله تعالى فى هذه الآية : « لفسدت الأرض » وشرح ذلك فى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض هُدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » فهذه الأماكن هى التى تبقى أصول القيم فى التدين . « وأصول القيم فى التدين » غير « كل القيم فى التدين » ، ولذلك نحن قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى جعل للإسلام خمسة أركان ، وهى التى بُنى عليها الإسلام . ولا بد أن نقيم بنيان الإسلام على هذه الأركان الخمسة ، فلا تقل : إن الإسلام هو هذه الأركان الخمسة ، لا ؛ لأن الإسلام مبنى عليها فقط فهى الأعمدة أو الأسس التى بنى عليها الإسلام . فأنت حين تضع أساسا لمنزل وتقيم الأعمدة فهذا المنزل لا يصلح بذلك للسكن ، بل لا بد أن تقيم بقية البنيان ، إذن فالإسلام مبنى على هذه الأسس .

والحق سبحانه وتعالى يوضح ذلك فيأمر بالمحافظة على أماكن هذه القيم ؛ لأن المساجد ـ ونحن نتكلم بالعرف الإسلامى ـ هى ملتقى فيوضات الحق النورانية على خلقه ، فالذى يريد فيض الحق بنوره يذهب إلى المسجد . إذن لكيلا تفسد الأرض لا بد أن توجد أماكن العبادة هذه ، فمرة جاء الحق بالنتيجة ومرة جاء بالسبب .

ولماذا يدفع الله الناس بعضهم ببعض ؟ لأن هناك أناسًا يريدون الشر وأناسًا يريدون الخير ، فمن يريد الشر يدفع من يريد الخير ، وإذا وقعت المعركة بهذا الوصف فإن يد الله لا تتخلى عن الجانب المؤمن الباحث عن الخير ، فهو سبحانه القائل :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

أى إن المعركة لا تطول . ولذلك قلنا سابقا : إن المعارك التى نراها فى الكون لا نجد فيها معركة بين حقين ؛ لأنه لا يوجد فى الوجود حقان ، فالحق واحد ، فلا يقولن أحد : إنه على حق وخصمه على حق . لا ، إن هناك حقًا واحدًا فقط . والمعركة ـ إن وجدت ـ توجد بين حق وباطل ، أو بين باطل وباطل . والمعركة بين

الحق والباطل لا تطول ؛ لأن الباطل زهوق . والذى يطول من المعارك هى المعارك بين الباطل والباطل ؛ فليس أحدهما أولى بأن ينصره الله . فهذا على فساد وذاك على فساد ، وسبحانه يدك هذا الفساد بذاك الفساد . وحين يندك هذا الفساد بذاك الفساد ، فجناحا الفساد فى الكون ينتهيان . ويأتى من بعد ذلك أناس ليس عندهم فساد ويعمرون الكون .

والمعارك التى تدور فى أى مكان نجد أن هذا الطرف له هوى والاخر له هوًى مختلف . ولا يقف الله فى أى جانب منهما ؛ لأنه ليس هناك جانب أحق بالله من الأخر ؛ لذلك يتركهم يصطرع بعضهم مع بعض ، ومادام الحق قد تركهم لبعضهم البعض فلا بد أن تطول المعركة . ولو كان الله فى بال جانب منهم لوقف سبحانه فى جانبه . وكذلك نرى فى معارك العصر الحديث أن المعركة تطول وتطول ؛ لأننا لا نجد القسم الثالث الذى جاء فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

إن الحق سبحانه وتعالى يأمر عند اقتتال طائفتين من المؤمنين أن يصلح بينهما قوم مؤمنون ، فإن تعدت إحداهما على الأخرى ، ورفضت الصلح فالحق يأمر المؤمنين بأن يقاتلوا الفئة التى تتعدى إلى أن ترجع إلى حكم الله ، فإن رجعت إلى حكم الله فالإصلاح بين الفئتين يكون بالإنصاف ؛ لأن الله يحب العادلين المنصفين .

ونحن نجد الباطل يتقاتل مع الباطل ؛ لذلك لا نجد من يصلح بين الباطلين ، بل نجد أهواء تتعارك ، وكل جانب ينفخ فى الطائفة التى تناسب هواه .

وهذه هى الخيبة فى الكون المعاصر ؛ إن المعارك تطول لأنه ليس فى بال المتقاتلين

شىء جامع ، ولو كان فى بالهم شىء جامع ، لما حدثت الحرب . ومادامو قد غفلوا عن هذا الشىء الجامع ، فمن المفروض أن تتدخل الفئة القادرة على الإصلاح ، ولكن حتى هؤلاء لم يدخلوا للإصلاح ، وهذا معناه أن الخيبة فى العالم كله . وسيظل العالم فى خيبة إلى أن يرعووا ويرتدعوا . إنهم يطيلون على أنفسهم أمد التجربة وسيظلون فى هذه الخيبة حتى يفطنوا إلى أنه لا سبيل إلى أن تنتهى هذه المشاكل إلا أن يرجعوا جميعاً عن أهوائهم إلى مراد خالقهم .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ، نعم تفسد الأرض فيما جعل الله للإنسان يداً فيه ، أما الشىء الذى لم يجعل الله للإنسان يداً فيه فستظل النواميس كما هى لا يؤثر فيها أحد ، فلا أحد يؤثر فى الشمس أو القمر أو الهواء أو المطر ، إنما الفساد جاء فيما للإنسان فيه يد .

انظر إلى الكون ، إنك تجد المسائل التى لا دخل للإنسان فيها مستقيمة على أحسن ما يكون ، وإنما يأتى الفساد من النواحى التى تدخل فيها الإنسان بغير منهج الله . ولو أن الإنسان دخل فيها بمنهج الله لاستقامت الأمور كما استقامت النواميس العليا تماما .

فى سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ ﴾

(سورة الرحمن)

ومادام الحق قد رفع السماء ووضع الميزان ، فالسماء لا تقع على الأرض والنظام محكم تماما ، الشمس تطلع من الشرق وتغرب فى الغرب ، والقمر والنجوم تسير فى منتهى الدقة والإبداع ، لأنه لا دخل لأحد من البشر فيه . فإن أردتم أن تصلح حياتكم ، وأن تستقيم أموركم كما استقامت هندسة السماء والأرض فخذوا الميزان من السماء فى أعمالكم ، واتبعوا القول الحق :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

﴿ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

ومادمتم قد رأيتم أن الأمور الموجودة التى تسير بنظام لا تتحكمون فيه تعمل باستقامة وترون أن الفساد قد جاء من ناحية الأمور التى دخلتم فيها ، فلماذا لا نتبع منهج الله فى الأمور التى لنا دخل فيها ؟ إنك إن عملت فى الحياة بمنهج الله الذى خلق الحياة فإن أمورك تستقيم لك كما استقامت الأمور العليا فى الكون . واحفظ جيداً قوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

ليحفظ كل منا هذا القول لنعرف أن الأمور العليا موزونة لأن يد الإنسان لا تدخل فيها . إن السماء لا تقع على الأرض لأنها محكومة بنظام محكم تماما .

والأرض لا تدور بعيدا عن فلكها ؛ لأن خالقها قد قدر لها النظام المحكم تماما . ولهذا يقول الحق سبحانه عن نظام الكواكب فى الكون :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝ ﴾

(سورة يس)

إنه نظام دقيق محكم لأنه لا دخل للإنسان فيه . اصنعوا ميزاناً فى كل الأمور التى لكم فيها اختيار حتى لا تطغوا فى الميزان .

ومادام الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان ومنحه الاختيار ، وبعض الناس اختار مذهباً ، والبعض الآخر اختار مذهبا مضادا ،وكلٌ من المذهبين خارج عن منهج الله ، فالحق سبحانه وتعالى يترك الفئتين للتقاتل والتناحر . ولأنه سبحانه ذو رحمة على العالمين ، يبقى عناصر الخير فى الوجود ، لعل أحداً يرى ويتنبه ويتلفت

ويذهب ليأخذها . فعندما تطغى جماعة يأتى لهم الحق بجماعة يردونهم ، حتى تبقى عناصر الخير فى الوجود لعل إنساناً يأتى ليأخذ عنصراً منها يحرك به حياته ، وصاحب الخير إنما يأتى من فضل الله على العالمين . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾

ونعرف أن « تلك » إشارة يخاطب الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى الآيات التى سبقت والتى تدل على عظمة الحق وقيومته ، فقد قال الحق من قبل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وساعة طلبوا أن يقاتلوا ، وأن يبعث لهم ملكاً ، وبعثه لهم ، وبعث لهم التابوت فيه سكينة. ، أليست هذه آيات أخرى ؟ ومن بعد ذلك أراد الحق أن يأتى مقتل جالوت العملاق الضخم على يد داود الصبى الصغير . أليست هذه آية ؟ وآية أخرى هى أن جماعة قليلة ـ بإقرارهم ـ حيث قالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » هذه الجماعة القليلة تدخل المعركة وتهزم الكثرة ، أليست هذه آية ؟

وهل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف الآيات التى سبقت رسالته ؟ لا ، ولكنها من إخبار الله له مع إقرار الجميع ، وخاصة الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ بأنه لا قرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ، ولا أحد قال له شيئا ؛ حتى الرحلة التى ذهب فيها للتجارة كان يصحبه فيها أناس غيره ، ولو كانوا قد رأوه جالسا إلى أحد يعلمه شيئا ؛ لأذاعوا أن محمداً قد جلس مع فلان ، وتعلم منه كذا

وكذا . ولكن هذا لم يقله أحد ؛ لأنه لم يحدث أصلا ، ولذلك كان إخباره صلى الله عليه وسلم بما يعلمونه هم عندهم هو بعضا من أسرار معجزته ، إنه قد عرف الأخبار السابقة رغم أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلق علما من أحد . وقد تماحك بعض المشركين وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس إلى فتى عند المروة يعلمه هذه الأخبار ، فنزل القول الحق يدحض هذا الافتراء :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝ ﴾

(سورة النحل)

لقد أثبت الحق أنها حجة باطلة ، وزعم كاذب من ناحيتهم . لأن الذى ادّعوا أنه علم الرسول كان أعجميا . ويقول الحق سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » . إن كلمة « آيات الله » تعنى الأشياء العجيبة ، و« نتلوها » أى نجعل كلمة بعد كلمة ، وهى من « ولى » أى جاء بعده بلا فاصل . « نتلوها عليك بالحق » والحق هو الشىء الذى وقع موقعه حيث لا يتغير عنه ، فلا يتضارب أبدا .

فهب أن حادثة وقعت أمامك ، ثم سُئلت عنها ألف مرة فى طيلة حياتك ستجد أن جوابك لن يختلف عليها أبدا ؛ لأنك تحكى واقعا رأيته ، لكن لو كانت الحكاية كذبا ؛ فستجد أن روايتك لها فى المرة الثانية تتغير ؛ لأنك لا تذكر ماذا قلت فى المرة الأولى ؛ لأنك لا تحكى عن واقع يأخذك وتلتزم به ، وكذلك الحق لا يتغير ، ولا يتضارب ، ولا يتعارض .

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ومادام الحق سبحانه هو الذى يقولها ، فسيقولها لك حقيقة ، وعندئذ يعرف الآخرون أنك عرفت ما عندهم مما يخفونه فى كتبهم يقوله بعضهم لبعض ، هنا يعرفون أنك من المرسلين ، ولذلك نحن نجد فى « ماكانات القرآن » التى يقول فيها تعالى : « ما كُنت » ، « ما كُنت » ، و« ما كنت » ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى ما كنت يا محمد حاضرا مع موسى فى المكان الغربى من الجبل حين عهد الله إليه بأمر الرسالة ، ولم تكن معاصرا لموسى ولا شاهداً تبليغه للرسالة فكيف يكذبك قومك وأنت تتلو عليهم أنباء السابقين ؟ ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الذى رواه القرآن لك يا محمد من الأخبار الجليلة عمن اصطفاهم الله هى من الغيب الذى أوحى الله به إليك . وما كنت حاضراً معهم وهم يقترعون بالسهام ليعلم بالقرعة من يقوم بشئون مريم ، وما كنت معهم وهم يختصمون فى نيل هذا الشرف النبيل . ومثال ذلك قوله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى ما كنت أيها الرسول حاضراً فى جانب الطور حين نادينا موسى لما أتى الميقات وكلمه ربه وناجاه ، ولكن الله أعلمك بهذا عن طريق الوحى رحمة بك وبأمتك ، ولتبلغه لقوم لم يأتهم رسول من قبلك لعلهم يتذكرون ويؤمنون . ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ

﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إن القرآن هو وحى منزل من عند الله ، يُعرِّف المؤمنين النور إلى الهداية وتكاليف الحق ، ويهدى من اختار الهدى ، وإنك يا محمد لتدعو بهذا القرآن إلى صراط مستقيم . إن كل « ما كنت » فى القرآن الكريم هى دليل على أن ما أخبرك به جبريل رسولا من عند الله إليك ، وحاملا للوحى من الله هو الحق ؛ فتعلمه أنت يا محمد بطريقة خاصة وعلى نهج مخصوص ، رغم أنك لم تقرأ كتابا ولم تجلس إلى معلم . وما تخبرهم به من آيات هى موافقة لما معهم ، وكان من الواجب أن يقولوا إن الذى علمك هذا هو الله سبحانه وتعالى ، وكان يجب أن يقروا ويشهدوا بأنك من المرسلين . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يشير إلى الرسل بقوله : « تلك الرسل » و« الرسل » هى جمع لمفرد هو « رسول » . والرسول هو المكلف بالرسالة . والرسالة هى الجملة من الكلام التى تحمل معنى إلى هدف . ومادام الرسل جماعة فلماذا لم يقل الحق « هؤلاء

الرسل » وقال « تلك الرسل » ؟ ذلك ليدلك القرآن الكريم على أن الرسل مهما اختلفوا فهم مرسلون من قبل إله واحد وبمنهج واحد . وكما عرفنا من قبل أن الإشارة بـ « تلك » هى إشارة لأمر بعيد . فعندما نشير إلى شىء قريب فإننا نقول : « ذا » ، وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول : « ذاك » . وعندما نشير إلى مؤنث فنقول : « تِ » وعندما نشير إلى خطاب مؤنث نقول : « تيك » . و« اللام » كما عرفنا هنا للبعد أو للمنزلة العالية .

إذن فقوله الحق : « تلك الرسل » هو إشارة إلى الرسل الذين يَعْلَمُهُم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، أو الرسل الذين تقدموا فى السياق القرآنى . والسياق القرآنى الذى تقدم تحدث عن موسى عليه السلام ، وعن عيسى عليه السلام ، وتكلم السياق عن أولى العزم من الرسل .

إن أردت الترتيب القرآنى هنا ، فهو يشير إلى الذى تقدم فى هذه السورة ، وإن أردت ترتيب النزول تكون الإشارة إلى من عَلِمَهُ الرسول من الرسل السابقين ، والمناسبة هنا أن الحق قد ختم الآية السابقة بقوله هناك : « وإنك لمن المرسلين » ، ولما كانت « وإنك لمن المرسلين » تفيد بعضيته صلى الله عليه وسلم لكلية عامة ، كأنه يقول : إياكم أن تظنوا أنهم ماداموا قد اتفقوا فى أنهم مرسلون أو أنهم رسل الله ، أنهم أيضا متساوون فى المنزلة ، لا ، بل كل واحد منهم له منزلته العامة فى الفضليّة والخاصة فى التفضيل . إنهم جميعا رسل من عند الله ، ولكن الحق يعطى كل واحد منهم منزلة خاصة فى التفضيل .

فلما كان قول الله : « وإنك لمن المرسلين » يؤكد لنا أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين الرسل فلا تأخذ هذا الأمر على أساس أن كل الرسل متساوون فى المكانة ، وتقول إنهم متماثلون فى الفضل . لا . إن الله قد فضل بعضهم على بعض .

وما هو التفضيل ؟

إن التفضيل هو أن تأتى للغير وتعطيه ميزة ، وعندما تعطى له مزية عمن سواه قد

يقول لك إنسان ما « هذه محاباة » ، لذلك نقول لمن يقول ذلك : الزم الدقة ، ولتعرف أن التفضيل هو إيثار الغير بمزية بدافع الحكمة ، أما المحاباة فهى إيثار الغير بمزية بدافع الهوى والشهوة ، فمثلا إذا أردنا أن نختار أحداً من الناس لمنصب كبير ، فنحن نختار عددا من الشخصيات التى يمكن أن تنطبق عليهم المواصفات ونقول : « هذا يصلح ، وهذا يصلح ، وهذا يصلح » و« هذا فيه ميزات عن ذاك » وهكذا ، فإن نظرنا إليهم وقيمناهم بدافع الحكمة والكفاءة فهذا هو التفضيل ، ولكن إن اخترنا واحداً لأنه قريب أو صهر أو غير ذلك فهذا هو الهوى والمحاباة .

إن التفضيل هو أن تؤثر وتعطى مزية ولكن لحكمة ، وأما المحاباة فهى أن تؤثر وتعطى مزية ، ولكن لهوى فى نفسك . فمثلا هب أنك اشتريت قاربا بخاريا وركبته أنت وابنك الصغير ، ومعك سائق القارب البخارى ، وأراد ابنك الصغير أن يسوق القارب البخارى ، وجلس مكان السائق وأخذ يسوق . ولكن جاءت أمواج عالية واضطرب البحر فنهضت أنت مسرعا وأخذت الولد وأمرت السائق أن يتولى القيادة ، وهنا قد يصرخ الولد ، فهل هذه محاباة منك للسائق؟ لا ، فلو كانت محاباة لكانت لابنك ، لكنك أنت قد آثرت السائق لحكمة تعرفها وهى أنه أعلم بالقيادة من الولد الصغير . إذن إذا نظرت إلى حيثية الإيثار وحيثية التمييز لحكمة فهذا هو التفضيل ، ولكن فى المحاباة يكون الهوى هو الحاكم .

وكل أعمال الحق سبحانه وتعالى تصدر عن حكمة ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى ولا شهوة ، فكلنا جميعا بالنسبة إليه سواء . إذن هو سبحانه حين يعطى مزية أو يعطى خيرا أو يعطى فضلية ، يكون القصد فيها إلى حكمة ما .

وحينما قال الحق : « وإنك لمن المرسلين » جاء بعدها بالقول الكريم : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » وأعطانا نماذج التفضيل فقال : « منهم من كلم الله » . وساعة تسمع « منهم من كلم الله » يأتى فى الذهن مباشرة موسى عليه السلام ، وإلا فالله جل وعلا قد كلم الملائكة .

وبعد ذلك يقول الحق : « ورفع بعضهم درجات » . ثم قال : « وآتينا عيسى ابن

مريم البينات » إنه سبحانه قد حدد أولا موسى عليه السلام بالوصف الغالب فقال : « كلم الله » وكذلك حدد سيدنا عيسى عليه السلام بأنه قد وهبه الآيات البينات . وبين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام قال الحق « ورفع بعضهم درجات » والخطاب فى الآيات لمحمد عليه الصلاة والسلام . إذن ففيه كلام عن الغير لمخاطب هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وساعة يأتى التشخيص بالاسم أو بالوصف الغالب ، فقد حدد المراد بالقضية ، ولكن ساعة أن يأتى بالوصف ويترك لفطنة السامع أن يرد الوصف إلى صاحبه فكأنه من المفهوم أنه لا ينطبق قوله : « ورفعنا بعضهم درجات » بحق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم وحده . وجاء بها سبحانه فى الوسط بين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت فى الوسط ، وإنما جاء آخر الأنبياء ، ولكنك تجد أن منهجه صلى الله عليه وسلم هو الوسط . فاليهودية قد أسرفت فى المادية بلا روحانية ، والنصرانية قد أسرفت فى الروحانية بلا مادية ، والعالم يحتاج إلى وسطية بين المادية والروحية ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأن محمداً صلى الله عليه وسلم قطب الميزان فى قضية الوجود .

وإذا أردنا أن نعرف مناطات التفضيل ، فإننا نجد رسولا يرسله الله إلى قريته مثل سيدنا لوط مثلا ، وهناك رسول محدود الرسالة أو عمر رسالته محدود ، ولَكِنْ هناك رسول واحد قيل له : أنت مرسل للإنس والجن ، ولكل من يوجد من الإنس والجن إلى أن تقوم الساعة إنّه هو محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان التفضيل هو مجال العمل فهو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا نظرنا إلى المعجزات التى أنزلها الله لرسله ليثبتوا للناس صدق بلاغهم عن ربهم ، نجد أن كل المعجزات قد جاءت معجزات كونية ، أى معجزات مادية حسية الذى يراها يؤمن بها ، فالذى رأى عصا موسى وهى تضرب البحر فانفلق ، هذه معجزة مادية آمن بها قوم موسى ، والذى رأى عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص فقد شهد المعجزة المادية وآمن بها ، ولكن هل لهذه المعجزات الآن وجود غير الخبر عنها ؟ لا ليس لها وجود .

لكنّ محمد صلى الله عليه وسلم حينما يشاء الله أن يأتيه بالمعجزة لا يأتى له بمعجزة من جنس المحسات[1] التى تحدث مرة وتنتهى ، إنه سبحانه قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة ، فرسالته غير محدودة ، ولابد أن تكون معجزته صلى الله عليه وسلم غير محسة وإنما تكون معقولة ؛ لأن العقل هو القدر المشترك عند الجميع ، لذلك كانت معجزته القرآن . ويستطيع كل واحد الآن أن يقول : محمد رسول الله وتلك معجزته .

إن معجزة رسولنا صلى الله عليه وسلم هى واقع محسوس . وفى مناط التطبيق للمنهج نجد أن الرسل ما جاءوا ليشرعوا ، إنما كانوا ينقلون الأحكام عن الله ، وليس لهم أن يشرعوا ، أما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فهو الرسول الوحيد الذى قال الله له :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فهو صلى الله عليه وسلم قد اختصه الله بالتشريع أيضا ، أليست هذه مزية ؟ إن المراد من المنهج السماوى هو وضع القوانين التى تحكم حركة الحياة فى الخلافة فى الأرض ، وتلك القوانين نوعان : نوع جاء من الله ، وفى هذا نجد أن كل الرسل فيه سواء ، ولكنْ هناك نوع ثانٍ من القوانين فوض الله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع من التشريع ليلائم ما يرى ، وهذا تفضيل للرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن حين يقول الله تعالى : « ورفع بعضهم درجات » فهذا لا ينطبق إلا على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه أكثر من التصريح بالاسم . وأضرب هنا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت أعطيت لولدك قلما عاديا ، ولولدك الثانى قلما مرتفع القيمة ، ولولدك الثالث ساعة ، أما الولد الرابع فاشتريت له هدية غالية جدا ، ثم تأتى للأولاد وتقول لهم : أنا اشتريت لفلان قلما جافا ، ولفلان قلم حبر ، واشتريت لفلان ساعة ، وبعضهم اشتريت له هدية ثمينة . فـ « بعضهم » هذا قد عُرف بأنه الابن الرابع الذى لم تذكر اسمه ، فيكون قد تعين وتحدد .

١ ـ علماً بأن رسول الله ﷺ كانت له معجزات حسية كثيرة انظر كتاب : الفرقان ... لابن تيمية .

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله » وحين تقول كلم الله إياك أن تغفل عن قضية كلية تحكم كل وصف لله يوجد فى البشر ، فأنا أتكلم والله يتكلم ، لكن أكلامه سبحانه مثل كلامى ؟ إن كنت تعتقد أن وجودى مثل وجوده فاجعل كلامى ككلامه ، وإن كان وجودى ليس كوجوده فكيف يكون كلامى ككلامه ؟

ربما يقول أحد: إن الكلام صوت وأحبال صوتية وغير ذلك، نقول له: لا، أنت لا تأخذ ما يخص الله سبحانه إلا فى إطار «ليس كمثله شىء» ونحن نأخذ كل وصف يرد عن الله بواسطة الله، ولا نضع وصفا من عندنا، وبعد ذلك لا نقارنه بوصف للبشر. فلله حياة ولك حياة. لكن أحياة أى منا كحياته سبحانه ؟ لا، إن حياته ذاتية، وحياة كل منا موهوبة مسلوبة، فليست مثل حياته

وعندما يقول الحق :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فهل جلوس الحق كجلوس الخلق؟ أو هل يكون كرسى الخالق ككرسى المخلوق؟ طبعا لا. ونحن المؤمنين نأخذ كل صفة عن الله فى نطاق التنزيه: سبحان الله وليس كمثله شىء، فليس استواء الله مثل استواء البشر، وليس جلوس الحق مثل جلوس الإنسان.

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ هب أن صاحبا لك دعاك لتأكل عنده، ثم دعاك أحد كبراء القوم لتأكل عنده، لابد أنك تجد الطعام متفاوتا فى جودته وأصنافه بين كل مائدة من موائد من دعوك، فإذا كان البشر أنفسهم تتفاوت بينهم الأمور الوصفية تبعا لمقاماتهم وقدراتهم وإمكاناتهم، فإذا ما ترقيت بالصفة إلى خالق كل الأشياء أيقنت أنه سبحانه منزه عن كل من سواه، وليس كمثله شىء.

إذن « كلم الله » تعنى أنه أعلم رسوله بأى وسيلة من وسائل الإعلام . « منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » والحق سبحانه وتعالى يؤكد دائما فى الكلام عن سيدنا عيسى ـ أنّ عيسى ابن مريم مؤيد بروح القدس ـ ؛ لأن المسائل التى تعرض لها سيدنا عيسى تتطلب أن تكون روح القدس دائما معه ، ولذلك يقول الحق سبحانه عنه :

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾

(سورة مريم)

ففى الميلاد سيدنا عيسى تعرض لمشكلة ؛ لأنه ولد على غير طريقة ميلاد الناس ، واتهمت فيها أمه ، وجاء القرآن فنزهها ، وبرأها ، ووضع الأمر فى نصابه الحق ، وأيضا فى موته عندما أرادوا أن يقتلوه .

وحين ننظر إلى الرسل نجد أن مقتضى أن يرسل الله رسلاً إلى العالم هو أنه سبحانه قد خلق الخلق غير مكرهين على فعل ، ولا مسخرين كما تسخر بقية الأجناس فى الكون ، ودونه مباشرة الحيوان الذى ينقص عنه العقل ، وبعد الحيوان يأتى جنس النبات الذى ينقص عنه الحس والحركة ، وبعد ذلك الجماد الذى ينقص عن النبات ، تلك هى أجناس الوجود . والإنسان هو سيد هذه الأجناس . والسيادة جاءت له من ناحية أن الأجناس كلها مسخرة لخدمته لا بالاختيار ، ولكن بالقهر والقسر .

فالشمس لم تجئ مرة لتقول : لم يعد الخلق يعجبوننى لذلك لن أشرق لهم اليوم ، ولا الهواء امتنع عن أن يهب ، ولا المطر امتنع عن أن ينزل ، ولا الأرض امتنعت عن أن تعطى النبات عناصر غذائه ، إن الإنسان يركب الدابة ويسيرها كما يحب وكما يريد ، لا شىء يتأبى أبدا على الإنسان . وأنت أيها الإنسان الجنس الوحيد الذى وهبك الله الاختيار لتمارس مهمتك فى الوجود ، فإن شئت فعلت كذا ، وإن شئت لم تفعل كذا .

ولكن الله لم يدعك هكذا على إطلاقك ، بل إنّ فيه أموراً تضير برغم أنفك وأنت

مسخر فيها ، لا تستطيع ـ مثلا ـ أن تتحكم فى يوم ميلادك ، ولا فى يوم وفاتك ، ولا فيما ينزل عليك من الأحداث الخارجة عنك ، ولا فيما يدور من الحركة فى بدنك ، كل ذلك أنت مسخر فيه فلا تنفلت من قبضة ربك . ولكنك مختار فى أشياء .

ونعرف أنه سبحانه وتعالى قهر أجناساً على أن تكون كما يريد ، وكما يحب ، وتلك صفة القدرة ؛ لأن صفة القهر تفيد السيطرة . فإذا ما ترك جنسا يختار أن يؤمن ، ويختار ألا يؤمن ، وإن آمن يختار أن يطيع ويختار أن يعصى ، فهذه تثبت المحبوبية لله سبحانه وتعالى لمن اختار وآثر طاعة الله على المعصية .

ونحن نعرف أن القهر يخضع القوالب لكنه لا يخضع القلب . فأنت تستطيع أن تهدد إنسانا بمسدس وتقول له : « اسجد لى » فيسجد لك ، لكنك لا تستطيع أن تقول له ـ وهو تحت التهديد ـ « أحبنى » . فالحق سبحانه وتعالى يترك لنا الإيمان بالاختيار ، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختياراً ، ليعلم من يأتيه حباً ومن يأتيه قهرا .

والعالم كله يأتى لله قهرا . وأنت أيها الإنسان فى ذاتك أشياء أنت مقهور فيها . ومن هنا ثبتت لله تعالى القدرة . وبقى أن تثبت له الحب . والعبد الصالح هو الذى يطيعه عن حب . ونحن قد سبق لنا أن ضربنا مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا إن إنسانا عنده خادمان واحد اسمه سعد والآخر اسمه سعيد ، سعد قيده صاحبه بحبل ويجُرُّه قائلا : « ياسعد » فهل لسعد ألا يجيء ؟ لا . لكن صاحب العبدين ترك لسعيد الحرية ، وعندما يناديه فهو يأتيه .

إذن ، أيهما يحبه ، الذى جاء بالحبل أم الذى جاء بالمحبة ؟ إذن ، فمن كرامة الإنسان أن يثبت لله صفة المحبة إن آمن بالله ؛ لأنه سبحانه وتعالى لو شاء أن يهدى الناس جميعا ما استطاع أى واحد منهم أن يكفر به ، ولو شاء أن يكون مطاعا دائما ما استطاع واحد أن يعصيه أبداً . ولذلك قلنا : إن إبليس كان عالما حينما قال أمام الله تعالى :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أقسم الشيطان لله بعزته سبحانه عن خلقه ، وكأنه قال : أنت يارب لو كنت تحتاج عبادك فأنا لا أستطيع أن آخذهم ، ولكن لأنك عزيز عليهم ، إن أرادوا أن يؤمنوا آمنوا ، وإن أرادوا ألّا يؤمنوا لم يؤمنوا ؛ فهذا هو المدخل الذى سأدخل منه . ولذلك استثنى الشيطان بعضا من العباد لأنه لن يستطيع أن يجد لوسوسته لديهم مدخلا :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أى إن الذى يريد الله أن يستخلصه لنفسه فلن يستطيع الشيطان أن يقترب منه . إذن فإبليس ليس داخلا فى معركة مع الله تعالى ، ولكنه فى معركة معنا نحن . ولقد أوضح الحق ذلك حين جاء على لسان إبليس فى القرآن :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن لو أراد الله أن نكون طائعين جميعا ، أيستطيع واحد أن يعصى ؟ لا يستطيع . ولو أرادنا مؤمنين جميعا ، أيستطيع واحد أن يكفر ؟ لا يستطيع . إنما شاء الله تعالى لبعض الأمور والأفعال أن يتركها لاختيارك ؛ لأنه يريد أن يعرف من الذى يأتيه طوعا وليظل العبد بين الخوف والرجاء ؛ ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)[1] .

ولهذا فإن مطلوب الارتفاع الإيمانى ، والارتفاع اليقينى أن تحب الله لذات الله . وهو سبحانه يجرى عليك من الأحداث ما يشاء ، وتظل تحبه فيباهى الله بك الملائكة فتقول الملائكة : يارب يحبك لنعمتك عليه فيقول لهم : وأسلب نعمتى ولايزال يحبنى ، ويسلب الحق النعمة لكن العبد لايزال يحب الله ، فهو يحب الله ولا يحب نعمته لأنه سبحانه ذات تُحَب لذاتها بصرف النظر عن أنه يعطينا النعم .

---

(١) رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة .

إذن الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل يحملون منهج الله لـمَنْ يريد أن يعلن حبه لله ، وأن يكون خليفة فى الأرض بحق ، وأن يُصلح فى الكون ولا يفسده . ونعرف أن الإصلاح له مرتبتان : أن تترك الصالح بطبيعته فلا تفسده ، أو أن تزيد الصالح صلاحاً . فلا تأتى على عين الماء التى تتدفق للناس وتردمها ، ولكنك تتركها على صلاحها إن لم تستطع أن تزيدها إصلاحاً . وقد تستطيع أن تزيد عين الماء صلاحاً ؛ فبدلاً من أن يذهب الناس متعبين إلى العين ويحملون منها الماء ، قد تصنع لهم مضخة عالية لها خزان ترفع إليه الماء وتمد « المواسير » وتوصل المياه إلى منازلهم . فأنت بذلك تزيد الأمر الصالح صلاحاً ، وهذه خلافة وعمارة فى الوجود. فإن لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فجنبنا شر إفسادك ، ودع الحال كما هى عليه ، واقعد كما أنت عالة فى الكون .

ولو أن الإنسان كان منصفاً فى الكون لسأل نفسه : مَنْ الذى اهتدى إلى صناعة الرغيف الذى نأكله الآن ؟ وسيعرف أنه قد أخذ تجارب الناس من أول آدم حتى وصل إلى صناعة هذا الرغيف ، فهناك إنسان زرع القمح ، وهناك إنسان آخر هداه الله أن يطحن هذا القمح ، وهو سبحانه هدى الإنسان أن يصنع منخلاً ليفصل الدقيق عن النخالة ، ثم هداه أن يعجن الدقيق حتى يجد له طعماً أفضل . ولا شك أنه ترك مرة قطعة من العجين ثم شُغل عنها بأى شاغل أو بأى سبب ثم رجع لها مرة أخرى فوجدها متخمرة ، فلما خبزها خرج له العيش أفضل طعماً ، إنه سبحانه قدر فهدى ، وإلا كيف تأتى هذه التجربة الطويلة ؟

ومثال آخر : إن الإنسان حين ينظف ثوبه ، لو أنه استعرض أعمال مَنْ سبقوه فى هذا الموضوع منذ آدم ، لعلم أن كل واحد سبقه فى الوجود أعطاه مرحلة من النفعية إلى أن وصل للغسالة الكهربائية التى تغسل له بدون تعب ، كل هذه الأشياء جاءت له بهدايات من الله .

وقد قلت مرة : لماذا طبخت الناس « الكوسة » ولم تطبخ « الخيار » ؟ إن هذه دليل على أن هناك تجارب كثيرة مرت على الإنسان حتى يميز طعم الكوسة المطبوخة عن الخيار ، وكذلك طبخ الناس الملوخية ولم يطبخوا النعناع ، مع أن النعناع أحسن

منها ، حدث ذلك ؛ لأن هناك تجارب وصلتنا بأن النعناع لا يُستساغ طعمه مطبوخا .

وأنت لو نظرت إلى أى شىء تستفيد به اليوم ، وقدرت الأعمال التى تداولته من يوم أن وُجد ، ستجد أن الحق قد قدر لكل إنسان عملاً ومجالاً ، وظل يخدمك أنت . ومادمت قد خُدمتَ بهؤلاء الناس كلهم من أول آدم وحتى اليوم ، فلا بد أن تنظر لترى ماذا ستقدم لمن يأتى من بعدك ، فلا تكن كسولاً فى الحياة ؛ تأخذ خير غيرك كله فى الوجود ، وبعد ذلك لا تعطى أى شىء ، بل لا بد أن يكون لك عطاء ، فكما أخذت من بيئتك لا بد أن تعطى هذه البيئة ، ولو لم يوجد هذا لما ارتقت الحياة ؛ لأن معنى ارتقاء الحياة أن إنساناً أخذ خبرة من سبقوه ، وحاول أن يزيد عليها ، أى أن يأخذ أكبر ثمرة بأقل مجهود .

فلو قدر الناس جهد الإنسان الذى ابتكر « العجلة » مثلا التى تسير عليها السيارة لكان عليهم أن يستغفروا الله له بمقدار ما أراحهم ، فبعد أن كان الإنسان يحمل على أكتافه قصارى ما يحمل ، وَفَّر عليه مَن اخترع هذا أن يحمل ويتعب ، وجعله يحمل أكبر كمية وينقلها بأقل مجهود .

إذن لا بد أن تنظر إلى النعم التى تستفيد بها الآن وترى كم مرحلة مرت بها ، وهل صنعها الناس هكذا أم تعبوا وكدوا واجتهدوا منذ بدء الوجود على الأرض ، وعرف الإنسان جيلا بعد جيل كيفية تطوير تلك الأشياء ، وقد يحدث خطأ فى مرحلة معينة فيبدأ الإصلاح أو التحسن وهكذا . فأنت عندما تجد أن العالم قدم لك كل هذه المنتجات ، لا بد أن تسأل نفسك : ما الذى ستقدمه أنت لهذا العالم ، وبذلك تظل الحلقة الإنسانية مرتقية ومتصلة .

والحق سبحانه وتعالى يرسل الرسل ويضع المنهج : « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ، حتى تستقيم حياة الناس على الأرض ، لكن الناس غلبت عليهم الغفلة عن أمر المنهج ؛ ولذلك تظهر فى الوجود فسادات بقدر الغفلة ، وعندما يزداد الفساد يبعث الحق سبحانه رسولا جديدا يذكرهم بالمنهج مرة أخرى ، وعندما يأتى الرسول

يؤمن به بعض من الناس ويحاربون معه . وينتصر الرسول وتستقر مبادىء الله فى الأرض ، ثم تمر فترة وتأتى الغفلة فيحدث الخلاف ، فهناك أناس يتمسكون بمنهج الله ، وأناس يفرطون فى هذا المنهج ، ويحدث الخلاف وتقوم المعارك .

ولو كان الحق سبحانه وتعالى يريد الكون بلا معارك بين حق وباطل لجعل الحق مسيطرا سيطرة تسخير. لكن الله تعالى أعطانا تمكينا، وأعطانا اختبارا؛ لذلك نجد من ينشأ مؤمنا، ومن ينشأ كافرا نجد الطائع، ونجد العاصى، هذا فريق، وهذا فريق. وإياك أن تفهم أن وجود الكافرين فـى الأرض، أو وجود العصاة فى الكون دليل على أنهم غير داخلين فى حوزة الله، لا . بل إن الله تعالى هو الذى أعطاهم هذا الاختيار، ولو شاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة لما استطاع إنسان أن يخرج على مراد الله.

وفى الآية التى نحن بصددها جـاء الحق بأولى العزم من الرسل: سيـدنا موسى عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيدنا عيسى عليه السلام وبعد ذلك يقول سبحانه:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

(من الآية ٢٥٣ سورة البقرة)

إذن ما الذى جعل الناس تقتتل فيمـا بينها؟ إنه الاختلاف بين الناس، لقد اختلفوا فاقتـتلوا. لكن ألا يمكن أن يكونوا قد اختلفوا ولـم يقـتتلوا؟ إن ذلك لو حدث لكان إجماعا على الفساد. والحق سبحـانه لا يريد أن يحدث هذا الإجماع على الفساد، فإن لم يسيطر الخيـر على أمور البشر فلا أقل من أن يظل عنصر الخـير موجودا، ويأتى واحد ليجد عنصر الخير وينميه.

إن الحق سبحانه لا يمحو فى أزمنة الباطل معالم الخير والأفعال الحسنة ، بل يستبقى - سبحانه - معالم الخير والأفعال الحسنة ليذهب إليها أى إنسان يريد الخير ، وقد يكون الخير ضعيفا ، ولكن الله لا يمحوه ؛ لأنه يعطى به دفعة جديدة لمؤمنين جدد يرفعون راية الحق ، وإن بدأوا ضعفاء . ولذلك نجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : « لولا عباد لله ركع وصبية رُضَّع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا »[1] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا ألا ننظر إلى الضعفاء على أنهم عالة وأننا أقوياء لمجرد أنهم يعيشون فى أكنافنا . بل قد يكونون سياج لطف ورحمة كما فى الحديث السابق .

إن الله سبحانه وتعالى رفع عنا العذاب من أجل وجود الضعفاء بيننا ، لأن فى الضعاف يوجد شىء من الخير ، ولتظل فى الوجود خلية من الخير حتى إذا ما أراد الوجود أن يفيق إلى الرشد فإنه سيجد من الخير ما يرشده . إذن لولا الاقتتال لعم الفساد ، وانتهت المسألة . لكن الناس اختلفت فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، « ولو شاء الله ما اقتتلوا » أى لظلوا على منهج واحد من الكفر أو من الفساد ، لكن الله يفعل ما يريد . وفى الاقتتال - كما نعرف - هناك تضحيات بالنفس ، وتضحيات من أجل أن تظل القيم السماوية على الأرض .

وتقتضى التضحية إما أن يجود الإنسان بنفسه وإما أن يجود بماله ، ولذلك فمن المناسب هنا أن نتكلم عن النفقة وهى الجود بالمال ، وخاصة أنه فى الزمن القديم كان المقاتل هو الذى يجهز عدة قتاله : فرسه ، رمحه ، سيفه ، سهامه ، لذلك فهو يحتاج إلى إنفاق ، ويتكلم الحق عن هذه المسألة لأن الأمر بصدد استبقاء خلية الإيمان المصورة فى المنهج السماوى الذى جاء به الرسل ؛ ليظل هذا المنهج فى الأرض حتى يفىء إليه الناس إن صدمهم الشر أو صدمهم الباطل فيقول :

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى .